دورومكانة رسالة شيخ الزاوية، دراسة في تمثلات زوارزاوية الدراويش-معسكر

بن علي نصيرة*1

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية-جامعة معسكر، n.benali@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03./01 تاريخ القبول: 2024/01./09 تاريخ النشر: 2024/01/30

ملخص:

تهدف هذه الدراسة الى الاشارة لدور شيخ الزاوية ومكانته في المخيال الشعبي وكيف تستمر سلطته من خلال دوره كوسيط مقدس، حيث ما زال يمثل الشيخ إحدى القوى الفاعلة في المجتمع، يقوم بدور في صياغة حركته، وتغييره. ودراستنا لطقس حمل مخطوط برية الشيخ هي محاولة لإبراز سماتها وفهم عوامل تمثل الكثير من أفراد المجتمع لها، وميلهم إلى استمساك بها، حيث تمثلها الناس خصوصا النساء وتوارثوها جيلا بعد جيل، ويكفي لتأييد وجهة نظرنا وجود واستمرارية ظاهرة حمل مخطوط رسالة شيخ الزاوية كطقس قائم على جملة من التصورات وننوه على مدى أهمية مخطوطات رسائل شيخ الزاوية ، التي تعتبر كأكبر مرجع تاريخي لمعرفة نوعية المشاكل الاجتماعية التي ما زال المجتمع الجزائري يتخبط فيها. وتبين لنا بأن الفكر العشائري ما زال يطغى على الدولة خصوصا علاقات ما بين الرجال والنساء رغم تحولها مازالت محافظة على ثباتها.

كلمات مفتاحية: السلطة، زاوية ، الطُقس ، الرسالة، التصورات، الثقافة الأبوية.

Abstract: The importanes of the study is its focusing of the role and position of the Zaouia Sheikh in the social structures. And their power continues even after their Deaths. because the sheikh constitutes a real power in the society and he plays a role in the movement and the change of the society. Here we ask ourselves the question : How to achieve this allegiance and by what means?

We think the sheikh's letter is the best way to fulfill this aum and to understand a lot of people's representations which are transmitted from generation to generation. The letter constitutes a ritual in the society. In order to clarify all what we have said we are going to deal with the sheikh's letter. Indeed it shows the social problems that everybody knows and tribal thinking is dominating the State.

Key Words : power, Zaouia , rituel, The letter,Representation, Patriarchal system

*1 المؤلف المرسل: بن علي نصيرة،

1- مقدمة :

ان ظاهرة اللجوء والتردد على الأضرحة ورؤساء الزوايا كانت ومازالت موجودة ومستمرة رغم مستجدات الحداثة، ومن خلال دراستنا بقرية الدراويش لاحظنا ارتباط وثيق بين صاحب الضريح كفضاء يحافظ على ديمومته والزاوية المرتبطة بجملة من الممارسات التابعة للضريح مثل الزيارات المتتالية للزاوية لعدة أسباب ودوافع كالسياحة الدينية، التداوي، التبرك و أهمها طقس حمل رسالة الشيخ **برية الشيخ** والتي وما زالت تحمل اسم رئيس الزاوية السابق والذي يعتقد في ولايته الروحية حسب تمثلات معظم مجتمع البحث، هذا الطقس عبارة عن كتابة الشيخ الحالي كوسيط مقدس مراسلات ما بين الخصمين باسم صاحب الضريح من أجل الوفاق وإنهاء الصراع بين أطراف المتخاصمين.

ومن المهم الاشارة الى مدى أهمية الموضوع، فاذا كان ضريح الامام الشافعي كفضاء لوضع رسائل الشعب المصري التي تشير لمشاكله ومعانته، فان موضوع دراستنا مرتبط بدور الشيخ الحالي كفاعل رئيسي في ارسال رسالة مخطوطة حسب رغبة الزوار التي تحمل اسم الشيخ السابق **برية الشيخ.**

1-1-إشكالية الدراسة:

نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على ظاهرة حمل رسائل من الشيخ والتي تعرف برية الشيخ البشير ومن خلال هذا الطقس نحاول البحث عن كيفية تمثل أفراد مجتمع البحث للشيخ ولرسائله ومعرفة أسباب استمرارية وديمومة لسلطته في عصر الحداثة. فما زال إلى غاية يومنا الحاضر. وتندرج دراستنا الميدانية في المقاربة الكيفية بغية الوصول إلى فهم عمق المعاني المتواجدة في ميدان البحث لذلك قمنا بإتباع المنهج السوسيو أنتروبولوجي لدراسة الموضوع.

ولتبسيط إشكالية البحث انطلقنا من الزاوية ميدان البحث وكان السؤال كالتالي :

كيف يتصور زوار زاوية بمنطقة الدراويش لرسالة الشيخ الزاوية المخطوطة "برية الشيخ" ؟

1-2-فرضية البحث:

تختلف تصورات زوار الزاوية لرسالة شيخ الزاوية استنادا الى المحددات التالية:

1-مكانة الشيخ عند الزوار

2-مكانة وسلطة رسالة شيخ الزاوية في المجتمع ويتجلى ذلك من خلال تعامل الزوار مع الممارسة الطُقسية لرسالة الشيخ.

1-3-مجتمع البحث وخصائص العينة :

تم اختيارنا على زوار زاوية الدراويش، وتعتبر هذه المنطقة إحدى القرى الصغيرة الواقعة في الإقليم الشمالي الغربي للجزائر، على أحد سفوح الجنوبية المطلة على سهل غريس بالقسم الغربي لجبال بني شقران . وتتكون عينة البحث من 17 مبحوث ، أربعة رجال وثلاثة عشر امرأة ، قاطنون بقرية الدراويش، وينحدرون من نفس العشيرة ، أما الإطار الزمني للدراسة كانت في فترة ديسمبر 2011 حتى مارس 2012.

1-4-أدوات جمع البيانات :

استخدمنا عدة أدوات لجمع البيانات هي:

أ- الملاحظة المباشرة للسلوك الاجتماعي في الزاوية.

ب- تحليل مضمون لرسائل شيخ الزاوية، والمتمثلة في 11مخطوطة التي تعتبر كأكبر مرجع تاريخي لمعرفة نوعية المشاكل الاجتماعية التي ما زال المجتمع المحلي يتخبط فيها ، بعد جمع 50 رسالة في مختلف المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولقد بلغت المشاكل العائلية وحدها حصة الأسد 30 رسالة من مجموع 50 (10 رسائل طلبات و20 رسالة استدعاء) ، قمنا بترقيمها بأرقام متسلسلة، ثم قرأنا كل على حدة ، بقصد تحديد فئات التحليل، وهذا ما يسمى بالطريقة البعدية في وضع الفئات.

ج- مقابلة نصف موجهة مع أفراد العينة.

د- مقابلة دراسة حالة مع شيخ الزاوية الحالي ونائبه وزوجة الشيخ الحالي.

1-5-تحديد للمفاهيم :

1-5-1-**الرئاسة :** واجب يلقى على الفرد الذي يمارس السلطة السياسية بصفة دائمة على جماعة محددة . فما يقابل الرئيس بأفريقيا يعرف ب **Chef**، أما في أمريكا اللاتينية فيعرف باسم **Cacique** ، ويعرف في أمريكا الشمالية ب **Sachem**، بينما يعرف الرئيس في أفريقيا الشمالية بالشيخ (Panoff. M, Perrin .M , 1973, P.58).

1-5-2-تعريف الشيخ : يعتبر الشيخ أساس التربية الصوفية، فلا طريق بدون شيخ فهو المرشد الروحي الذي يتولى تربية المريدين، والإشارة إليهم بمستلزمات السلوك ومقتضيات الوصول إلى قرب الخالق عز وجل زيدان يوسف. م: 2000، ص. 44).

1-5-3-غريس : هو من السهول الوطن الراشدي، وسمي غريسا لأنه كان مغروسا بأنواع الشجر ذوات الأثمار (بن بكار . ب : 1961، 34).

1-5-4-التمثلات الاجتماعية: جاء في قاموس لاروس (1980) le petit Larousse، يعرف كفعل تمثيل تقديم من جديد لأداء مسرحية أو صورة معبرة...الخ، أو صورة ذهنية لشيء يجسد تمثلات لأمة ...الخ. إن الفعل يتصور باللاتينية représentare معناه إعادة إنتاج أو إظهار بصفة مادية صورة لشيء خيالي. أما في القاموس العام للعلوم الإنسانية Thiens. G , Lempereur R" عام 1975، صفحة 837 ، يستعمل التمثيل بمعنيين الأول معنى فلسفي ويوجد بداخله معنيين، الذي يحل محل الشيء، و الذي ينشأ شيء في محتواه و في معناه .

أما المعنى الثاني فهو خاص بعلم النفس ويقصد به نسخة ،إشارة أو الرمز، فالتصور لا يعني الطبع، انه نتيجة عمل من خلاله يلم هذا الفكر وينظم ما يراه (Cherif . H : 2000, 43-44).

1-5-5- الطُقس:

تعرف النظرية الدوركايمية الطُقوس بإنها قواعد سير التي تبين كيف يجب على الإنسان أن يتوافق مع الأشياء المقدسة(Durkheim . E : 1912-1990 ,56)

وللطُقوس والشعائر دور مهم في حماية الحياة من خلال تكرارها، حيث ينظر إليها حسب **فان دار لوييه** بأنها أسطورة في فعل، ويرى **Roger Bastide** كل الشعائر هي إحياء لذكرى الأسطورة، إذ هي التي تؤسسها وتبينها وتفسرها(Jeffrey . D : 1998, 57) .

2-دورشيخ الزاوية في المجتمع الجزائري:

لعبت الزوايا دورا كبيرا في المحافظة على الدين الإسلامي من خلال الطرق الصوفية، فالزاوية كمنظومة دينية هي ظاهرة منتشرة بكثرة في المغرب العربي بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، حيث قدم لنا بوسكيه في كتابه الإسلام المغربي: مقدمة لدراسة شاملة في الإسلام، إحصائيات حول عدد الزوايا بالمغرب العربي سنة 1930، فكانت على نحو التالي 250.000 في الجزائر، 60.000 في تونس و200.000 في المغرب (الهويدي. ي: 1965، 364) وعلى حد قول Paul Pascon المغرب بلد مئة ألف والي **(Pascon. P: 1986, 72)**.

ولقد انتشرت الطرق الصوفية وكثرت الزوايا بالجزائر في العهد العثماني، وعاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد مبتعدين عن الحياة الدنيا مؤثرين العزلة والعبادة ، وإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار ، ويصبح المتصوف يعرف باسم المرابط ، أما المكان فيدعى بين الناس زاوية سيدي فلان وعندما يموت سيدي فلان يدفن في الزاوية أو الرباط ويصبح الضريح علامة على الزاوية، ويرث الأبناء والأحفاد مكانة وعمل سيدي فلان مما يؤدي إلى استمرارية قداسة الزاوية. وحسب Jean Paul Charnay يعتبرون أولياء الله وحراس المدينة في اعتقاد المجتمع المغاربي (Charnay. J: 1997, 204-205)أو رجال الله حسب ما أشار له **Paul Pascon**.

ولقد ارتبطت برئيس الزاوية كفاعل رئيسي الأول عدة مهام ومسؤوليات، فقد كان رجل دين ، القائد في الحرب، القاضي والقائم بكل الممارسات الطقسية المرتبطة بالزاوية. ومن خلال دراسات Jacques Berque **لبنيات الاجتماعية بالشمال الأطلسي** أشار لنا للسيرة الذاتية لبعض الأولياء والذين كانوا في الأصل رؤساء زوايا، فقد لاحظ بوجود دوما سمات مختلفة ما

بين طُقوس الدينية والقانونية، وذلك على مستوى الحياة المحلية (Berque. J: 1955, 240) وفي هدا المقام أكدت لنا Fanny Colonna كيف كان التاريخ الكولونيالي شاهد على الدور السياسي، ومدى ارتباط كل المقاومات الشعبية برؤساء الزوايا (Collonna. F: 1987, 161) .

وفي نفس السياق يضيف لنا **Jacques Berque** بأن الأكثر وضوحا من الناحية الأفريقية هم الرؤساء، إنهم يسجلون طاقتهم الشخصية على التناحرات والمنازعات الأثنية والتقاسمات المعقدة ما بين الرمز والمسرح والسلطة (Berque. J: 1955, 155) ، فقد أشار إلى مكانة رؤساء الزوايا وجملة الطقوس المرتبطة بهم، وكيف يتم إتباع أوامرهم (Berque. J: 1982, 126). والدراسات في هذا الميدان كثيرة ومتنوعة مثل دراسة **Emile Dermenghem** حول عبادة الأولياء وكيفية الولاء والخضوع له، و دراسة **Khadija Naamouni** حول عبادة بويا عمر وبدون إهمال دراسات **Fanny Colonna** التي ميزت بين دين المختص بالكتاب المقدس **le religion scripturaire** وهو دين المدن **religion des cites** أي الدين الإصلاح ، وبين الدين الريفي أو العشائري **religion extatique** = **religion des tribu** (Collonna. F: 1987, 175) حيث عرفت الأول بأنه دين مثقف، مادي، ليس له سمعة ولا شعبوية ، أما الثاني فهو جاهل متقشف، عنيف وسيطرته على الشعب كاملة (Collonna. F: 1987, 205).

3-سلطة الشيخ بمنطقة الدراويش

3-1-مكانة الشيخ البشير في الوجدان الشعبي

تقع زاوية الدراويش بسهل غريس ، قرب بلدية ماوسة بمعسكر، وقد أحيطت بسلسلة قروية والمتمثلة في مجموعة من العشائر التي تربط بينهم علاقة النسب وتبقى زاوية الدراويش المحصلة النهائية، ونقطة التي تتقاطع فيها المحاور الترتيبات العشائرية.

تأسست هذه الزاوية حوالي عام 1745، من طرف الشيخ علي بن سنوسي ، والذي هو مدفون بقربها ، ثم ورثه ابنه عبد القادر، وبعد وفاته أعيد تأسيس الزاوية على يد ابنه مصطفى

حوالي عام 1845 ثم بعد وفاته ورثه أبن أخيه الشيخ احمد بن العربي ، وبعدها انتقلت إلى الشيخ ابن أحمد (مقابلة مع شيخ زاوية الدرويش)، وحاليا ابنه سحنون بن البشير وكان مقرها إبان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر في حي بابا علي بمعسكر قرب زاوية بوشنتوف.
فهي إحدى زوايا المشايخ ، والطريقة المتبعة لهذه الزاوية هي الطريقة الدرقاوية التي تنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد العربي بن احمد الدرقاوي المتوفي سنة 1823 (مقابلة مع شيخ الزاوية الحالي).

ويكمن سبب هذه التسمية، لأنه في عهد هذا الشيخ وفي فترة مشيخته بالتحديد اشتهرت رسائله التي ارتبطت بجملة من التصورات والطقوس، وأصبح لموقعها أثر بالغ في الفصل بين الخصومات. فقد لعب الشيخ دور كبير في حل المشاكل الأسرية من أجل الوفاق الأسري، وسادت فكرة سلطة الشيخ والجاه آنذاك بسبب قلة المشاكل العائلية وندرة الطلاق.

إن مكانة شيخ البشير في الوجدان الشعبي كبيرة جدا، فلا يستطيع أحد أن يتكلم عنه بسوء باعتباره كطالب علم، ورجل يلتزم الصمت والسرية، ولا يحمل ذكريات أي كان (Dermenghem. E: 1954, 203). وهذا ما أدلى به مبحوثينا، فبمجرد ذكر اسمه لهم لاحظنا ردود فعلهم التي تأكد مدى خضوعهم للشيخ كالبكاء والخشوع، فهم يتكلمون عنه باعتباره شخص خارق للعادة، وحسب تصورهم فهو بطل هذه المنطقة، حتى الأشخاص الذين لا يؤمنون بولايته الروحية يحترمونه بوقار بسبب دوره في الوفاق والتماسك الأسري والمجتمعي ككل، ويتجلى لنا دلك من خلال اعترافهم في تصوراتهم بأعماله الخيرية كحق الحصانة، إطعام المساكين والفقراء، تعليم المردين، الزهد في الدنيا، وإصلاح ذات البين خصوصا المشاكل الأسرية فهناك من يعتقد في درجة وصوله وقربه من الله حسب تصورات بعض الزوار. وفي هذا المقام تقول (المبحوثة فاطيمة، 62 سنة، أمية): ***الشيخ هو من الواصلين، طلبته قريبة، هو يزيد في الخيمة والأولاد***، والبعض الأخر ينظر إليه أنه أحد

رجال غريس أو أحد السادات وأحيانا مرابط ويجب الإشارة إلى أهم العوامل المساهمة في تعاظم مكانة الشيخ البشير، والمتمثلة في الكرامات، وقوة كلمته. وعليه هذه الفئة من الرجال وبفضل البركات التي تنسب إليهم والى كل ذرية الرسول (ص) فانهم لا يخضعون للقوانين العامة. وبعض الرجال الذين ينتمون إلى بعض العائلات الكبيرة يملكون تأثيرا وسلطة خارقة للعادة، فهم يبحث عنهم في كل مكان وتتبع أوامرهم بالحرف الواحد وقراراتهم مقبولة بصفة لا رجعة فيها لحل كل النزاعات، حتى ولو في بعض الأحيان تكون الأحكام الصادرة عنهم ضد الإسلام (Harris. W: 1929,235-236). مما ينتج الخضوع المطلق لأوامر شيخ الزاوية لقول المبحوث : ***لا أستطيع أخذ شيء بدون رضا الشيخ، مثلما لا أستطيع أن أدخل داخل النار، فهل تستطيعين الدخول داخل النار؟ ، نفس الشيء أنا لا أستطيع مخالفة أوامر الشيخ مهما كان الثمن*** (مقابلة رقم 01 ، 33 سنة، مستوى ثانوي، تاجر). وننوه بارتباط خطاب الشيخ بالنص القرآني، هذا ما يجعل منه مثقف تقليدي، فتخضع له الرقاب لامتلاكه المقدس، لهذا شبهت فاني كولونا طالب العلم بالمعلم و الراهب **l'instituteur et le curé** فهو الذي يأذن للصلاة ويوزع العقاقير والحرز، لأنه يعرف الكتابة فإنه يدخل في الشؤون العائلية (Collonna. F: 1979, 193) فمعظم هؤلاء القديسين الذين يعتبرون علماء لا يعرفون سوى القراءة و الكتابة(Collonna. F: 1975, 31)

وتكمن سلطة كلمة الشيخ البشير لأنها قائمة على أساس تصور مدى خطورتها في حالة عدم احترامها، إذ أنها تنطوي على العقاب الفوري، وهنا نلاحظ ارتباط وثيق بين الطُقس و الأسطورة، فكل من يعتقد في الشيخ أجابوا:***تخاف على روحك***، وتشير سجلات المبحوثين إلى العديد من الأحداث والوقائع التي حدثت جراء عدم احترام كلام الشيخ. وهنا يتضح لنا أن الكلمة هي التي لها السلطات وليس صاحبها(Gall. M: 1972, 157) .

لقد شبهت إحدى المبحوثات بركة الشيخ بالوالدين، وكأنه يريد أن يقول هو أب الجميع لقولها : ***إن كلمة الشيخ ودعائه مثل دعاء الوالدين، حتى وإن تنازلنا، سيبارك الله لنا***

ويكون هناك جزاء في الدنيا قبل الأخيرة ، فمثلما يقولوا الوالدين اترك هذه قطعة الحلوة لأخيك الصغير، فهذا الابن سيجزى على طاعة الوالدين" (مقابلة رقم 04 ، أنثى، 50سنة، ايتدائي). ولهذا تعتبر السلطة قيمة القيم ونواة الروحية لأنه لا قيمة لأي شيء مهما كان غالي ثمنه، إذا لم تتوفر فيه قوة الوجود (Helzfeld. H: 1993, 191)

وفي نفس السياق تضيف لنا مبحوثة أخرى :***إن شيخ هو صاحب البركة وله دعاء مستجاب وفي حالة عدم إتباع كلامه، سيحدث أمر ما فقد أخذ الشيخ البشير للجاه من اجل إرجاع امرأة لبيتها فلم يحترموا قراره وقيل إنهم لم يحترموه ، وعقب خروج الشيخ من بيتهم على بعد خمسين متر، وقع لهم حادث والمتمثل في حرق البيت*** (المقابلة رقم 01، أنثى، 45 سنة، ابتدائي).

كما تؤكد إحدى المبحوثات: ***إن جاه الشيخ ، صعب، وفي حالة عدم إتباعه تحدث مصيبة، زوج ابنتي تعدى حدوده وظلم ابنتي ونصحه الشيخ وطلب منه أن يكف عن الظلم والكذب غير أنه لم يسمع كلامه وبعدها مباشرة حدث له حادث مرور مازال إلى غاية يومنا الحاضر معوق لا يستطيع المشي***. (المقابة رقم 11، أنثى، 65 سنة، أمية).

وهكذا يتضح لنا أن قيمنا ليس لها أهمية إلا إذا كان لها قوة التي تفرض علينا ، وبالتالي فالسلطة هي الخاصية الأولى لكل آلوهية(Helzfeld. H: 1993, 191) .

و في نفس السياق تأكد مبحوثة أخرى على مدى العقاب الفوري في حالة عدم احترام الشيخ لقولها: ***إن من يتعدى حدود الله هنا في الزاوية وعند الشيخ فإنه يدفع الثمن غالي وباهض الثمن، إن زوجي ظلمني في كرامتي وشرفي ، وعندما حكم بيننا الشيخ كلنا أصرا على موقفه، فقال لنا الشيخ الظالم ربي يهلكه في صحته. وتحقق كلام الشيخ، فزوجي يعاني من مرض مزمن وهو الآن عاطل عن العمل لم يجد حتى ثمن الدواء"***. (المقابة رقم 09، أنثى، 52 سنة، ابتدائي).

3-2-رسالة الشيخ الزاوية نمط تقليدي مستمر

تستخدم وثيقة رسالة الشيخ البرية لإصلاح ذات البين والمحافظة على التماسك الأسري والمجتمعي، وفي الأصل كانت تأخذ هذه الرسالة بالكلمة ومازالت وعندما أصبح الورق متوفر أدخلت تقنية الاستدعاء كوسيلة للاتصال. فهي ليست مجرد إرسال مراسيل عن طريق وساطة الشيخ، ولكنها تحمل أيضا اعتقاد أفراد المجتمع، كما تعبر عن نفسية المشكو في حقهم، وعن إحساسهم وحاجاتهم وطلباتهم، وتبين عمق مأساتهم وآلامهم ، فالرسالة لها أبعاد نفسية عميقة.

وتتميز رسالة الشيخ البشير بمنتهى البساطة وغير مكلفة، سواء على مستوى الشكل أو المضمون، حيث لا يراعى فيها الإجادة المهم إيصال خطاب تبليغي إلى أحد الخصمين، ويرجع سبب ذلك إلى عقلية وأسلوب نمط المعيشي لأفراد مجتمع البحث . وتتميز الرسالة من حيث الشكل بنوعية الورق العادي المكتوب عليه الرسالة والتي لا تتجاوز مساحتها 180 سم² و لا تتعدى 250 سم²، وذلك بسبب التوافد المتزايد والمستمر من الزوار ذهابا وإيابا، وكذلك من ميزة نمط المعيشي للمتصوف هي حياة التقشف والابتعاد عن المغريات الدنيوية. وتشمل صفحة الأولى من الرسالة حوالي خمسة إلى سبعة أسطر، أما الصفحة الموالية للرسالة (الوجه الثاني للورقة)، فلا تتجاوز سطر أو سطرين متبوعة بختم الزاوية . أما نوعية الحبر فهو مجرد قلم الجاف، بينما نوعية الخط فيستخدم الخط العربي الحديث و أحيانا الخط المغاربي، ويكمن جوهر هذا الاختلاف في اختلاف الرجلان الشيخ ونائب.

3-2-1- عناصر الرسالة:

تتكون رسالة الشيخ البشير من العناصر التالية :

أ-عنصر الديباجة :

يبدأ الشيخ خطابه بالبسملة *بسم الله الرحمان الرحيم* مع ذكر مكان *زاوية الشيخ البشير*، والملفت للانتباه غياب تاريخ الرسالة.

ب-التعريف بأصحاب الرسائل :

توجيه الرسائل من المرسل إلى المستقبل حيث يذكر الاسم واللقب بالنسبة للرجل، ويذكر إسم الأم بالنسبة للمرأة *فلانة ابنة فلانة*. وتتعدد ثنائيات (المرسل، المستقبل) ، مع غياب العنوان .

ج-المتن:

في معظم الرسائل تبدأ بالصلاة على النبي *والصلاة والسلام على أشرف المرسلين* وأحيانا تضاف بعد الصلاة على النبي بإلقاء تحية السلام الاسلامية. كما يحتوي خطاب الرسالة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب المواضيع التي يسمعها من المشكو في حقه . بينما مواضيع الرسالة فان مضمونها يشمل على شكاوي و طلبات ، وأحيانا طلب الحضور سواء ذكرت الأسباب أو لم تذكر، بحيث تتنوع الشكاوي و الطلبات حسب رغبة مرسلي الرسائل.

د- أخر الرسالة :

إلقاء تحية السلام، أو دعاء الشيخ بالخير والتوفيق ، الإلحاح في الطلبات حيث نستشف ذلك من خلال التكرار كأمر إلزامي، سواء تعلق الأمر بإرجاع الحقوق أو طلب الحضور مع ذكر اليوم والوقت المحدد بعد صلاة المفروضة كالظهر و العصر . وأخيرا توقيع الشيخ والمتمثل في رسم رمز الزاوية وقدسيتها هلال و نجمة.

أما إذا أخذنا نصوص الرسائل التي تتضمنها محتويات النصوص وقمنا بتحليل معطياتها اللغوية في ضوء الواقع والسياق الذي تشكلت من خلاله، فقد جاءت الألفاظ متداولة اجتماعيا لا غرابة فيها، فهي لغة التخاطب العام مثل خدعتها- فاقطع- منيتها ....الخ. كما جاءت الألفاظ محدودة الدلالة ، فاستعمال اللفظ بمعناه الشائع في الأوساط الاجتماعية ، تتسم بالعذوبة والليونة تارة والغلظة تارة أخرى ، مثل *رجع زوجتك وخاف من الله*.

بينما جاءت العبارات بسيطة المعاني ، سهلة التركيب والبناء ، ويلجأ الشيخ إلى أسلوبي الترغيب والترهيب مثل لا يفلح الغادر والعاقبة للمتقين ، أي كأداة للردع وحل النزاع . أما أسلوب السائل مجمله خبري مناسب لتقرير قضايا الخصوم مثل *جاءت*، *قالت* حيث وظف الأفعال الماضية ، لفعالية سرد أحداث القضية بناء على طلب المدعى.

في حين تبين الأفعال المضارعة الشكاوي والطلبات ، ويظهر دور الشيخ في الأساليب الإنشائية كأمر إلزامي، وهو بمثابة الحكم القضائي يدل على سلطة الشيخ في المجتمع مثل ***أتركها*** ، ***أعطوا ، اتقوا*** .

ومن بين الألوان البديعية القليلة المتواجدة في الخطاب نجد الطباق، مثل ***يحفظكم ....يهلكه*** ، ***صالح...مخادع*** والاستعارة مثلا ***نحن نجعل دعوة النصف في الظالم حتى يهلكه الله***، فقد جعل الفاعل لدعاء الشر وعاء وأفرغه على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة يقصد بها الحرص الشديد على ارتباط دعاء الشر في الظالم حتى درجة الهلاك. كما أنه يستخدم السجع اتركها وشأنها، لقد غدرت بها.

ونجد للرسائل بنية اندفاعية، تحتوي على وحدة نفسية واحدة، تتميز بالدفق والاندفاع المصبوغ بالغضب، فالخطاب منذ البداية حتى النهاية كان غاضب أي المنحنى لم يهبط ولم يصعد كحالات الغضب الأخرى .

فلغة هذه الرسالة بالتحديد ، بنيت ألفاظها وجملها في مركبات دالة بدلالات عميقة تبين نفسية المحتوى . فالقراءة السطحية تقول أن هناك ألفاظا ونهايات مسجوعة، بينما القراءة العميقة تقول أن هناك لحظة غضب تطلق قذائفها السريعة ، مثلا : ***السلام على من اتبع الهدى –أتركها وشأنها – غدرت بها –الله يهلك الظالم.***

ونص الرسالة له ميزة جمع المختلفات، فنجد هناك خطاب واقعي-حلمي حيث تسرد أخبار لوقائع وأحداث المدعى الجانب الدنيوي مثل علاقة الرجل بالمرأة أو علاقة البيع بالشراء ....الخ، ثم يربط الواقع بالآخرة أي علاقة بحياة ما بعد الموت وبعذاب الآخرة. ***كل واحد منكم في حده ..والظلم ظلمات يوم القيامة***، وكذلك ***نفذي وصية أبيك إنها أمانة سوف يحاسبك الله عليها يوم القيامة.*** فنجد (الحسي-المثالي) ،(الشاهد-الغائب) ،(الأمر-النهي)، وليست المسألة مسألة تعارض أو تناقض، فإذا نظرنا إلى خطاب الرسالة كنظرة أحادية الجانب، فالثنائيات تعتبر بالمتضادات. أما إذا نظرنا إليه من حيث السياق فسنرى رؤية واسعة، وهكذا تصبح رسالة الشيخ وسيط من خلالها يتحول العالم المادي والأفكار

الذهنية إلى رموز، فتصبح لها وظيفة اتصالية التي تفرض علاقة بين المتكلم والمخاطب، وبين المرسل والمستقبل.

4-مكانة رسالة الشيخ عند الأهالي

هناك أربع تصورات أساسية لرسالة الشيخ وقيل التطرق لها من المهم الاشارة الى جمهور المتلقي والتابع لرسالة الزاوية والمتمثل في المرأة.

4-1- **الرسالة هي رمز مقدس:**

تعرف عند مجتمع البحث بمعيارين أساسيين وهما السخط ***برية وعرى*** أي أن هذه الرسالة صعبة ، وتصل ذروة الاعتقاد إلى مدى احترامها عدم وجوب تجاوزها. ولقد ارتبطت هذه التمثلات بالنساء أكثر من الرجال، مع انعدام المستوى الثقافي وانحدارهم من مناطق ريفية تنتمي معظمها إلى العشائر الموالية للمرابط *سيدي احمد بن علي*، أصل زاوية الدراويش، هذه الفئة تجمع في ذاكرتها أخبار أولياء غريس، تحدثت عن قيمة الزاوية والغاية من وراء زيارتها . وتعتبر رسالة شيخ البشير حسب تمثلاتهم بأنها وسيلة للضبط الاجتماعي، سلاح ضد القهر والظلم خصوصا بالنسبة للمرأة، هي نوع من التمرد ضد الرجل حيث تمد بالقوة والطاقة لمن يحملها . فتصبح سلاح فتاك. ولتفحص صدق تصوراتهم، لاحظنا ارتباطهم بجملة من الطقوس والمتمثلة في سلسلة من الطقوس كالجهود والتطهير التضحية ، وهي: طريقة كلامهم مع الشيخ ، محاولة التملق له واستمالته بالبكاء، تقديسه، تقبيل يده، مناداته باسم **سيدي**، كل ما يلمسه الشيخ يصبح مقدس ، فيقومون بجمع الماء من البئر ، الخبز وحتى تراب الزاوية وأي شيء يعطى من طرف الشيخ يصبح مقدس ، مهما كان حتى قطعة الحلوة تصبح رمز مقدس ، لا تأكلها المرأة وحدها بل تتقاسمها مع بقية أفراد عائلتها . إن الخضوع للرسالة هو خضوع لكلمة الشيخ ، لأن الكلمة هي قبل كل شيء وبالتدقيق خاتم ، هي نوع من عقد ملكية الإنسان ، على ميدان في ظاهر لا أهمية له لأنه مختفي .(Helzfeld H: 1993, 157)

فمن ينظر إلى الشيخ بمعيار البركة، فهم يثقون به ثقة مطلقة، وعندما يصلهم استدعاء من عند الشيخ فهو شرف عظيم بالنسبة لهم، بالرغم من شعورهم بالإحراج ، وتعتبر الرسالة عندهم كحرز ، فمعظمهم لا يرسلون الرسالة إلى الخصم وإنما تعلق عند باب منزلهم من أجل البركة فهي حجاب، سلاح ذو حدين تجلب النفع لصاحبها، وفي نفس الوقت تنتقم من المعتدي ، فتصبح وسيلة إعلامية، فأي إشارة، رمز أو رؤى تأخذ بعين الاعتبار، والرسالة عندهم يحتفل بها بجملة من الطقوس من باب محبة الشيخ والطمع في بركته عكس الفئة الأولى التي تحتفل بها من باب الخوف من سخط الشيخ. ومما تقدم يتبين لنا أن مصطلح الطقس يتناول علاقة مباشرة بين الشخص والإله، بين الوضعية الإنسانية وفكرة المخلوق أو المخلوقات. وهذا يتطلب تغيير موقف إلى هدف احتفالي كشرط أساسي ويرجع بناء اجتماعيا إلى مفهوم الوظيفة والزمن الطقسي وإلى سببية خاصة.

4-2- الرسالة كرمز السلام :

هذه الفئة تؤمن بالولاية الروحية للشيخ كرجل صالح ، ويعتقدون أن له دعاء مستجاب، وكلمته موجودة في رسالته، التي يعتبرونها رسالة سلام، إنها استدعاء من شخص له مكانة عالية في المجتمع، تستخدم لحل المشاكل والتوسط من باب الجاه كوسيلة قديمة عرفت في المجتمع العشائري. وقد ارتبط هذا التمثل في الأغلبية بالرجال، مع تباين في مستوى الثقافي والاجتماعي والنسب.

4-3-الرسالة كرمز الخراب و الصراع:

هذه الفئة لا تؤمن بالشيخ ، ولكنها تؤمن بخطورة الرسالة بسبب أحداث وقعت لأشخاص جراء عدم احترامها وهي غير مرحب بها، يمنع منعا باتا من دخولها إلى البيت سواء تعلقت بالمعني بالأمر أم لا، إنها رمز العداء .

4-4-عدم الاعتراف بالرسالة :

هذه الفئة تتحدث بحذر شديد، فهي لا تطلع برأيها وتمثلاتها بسهولة، ولكن بعد استدراجهم اتضح لنا عدم ارتباطهم بالزاوية ، فمعظمهم يحضرون لأخذ رسالة، كوسيلة لضغط على

الأخر الذي يؤمن بها، وبالتالي تصبح هذه الرسالة حيلة لتأثير على الأخر من أجل لعبة المصالح . ونستطيع أن نقول شبه غياب للمستقبل في هذه الفئة.

خاتمة :

من خلال دراستنا الميدانية لاحظنا تردد الزوار على الشيخ لقيام بجملة من **الطُقوس** من بينها استلام وثيقة برية الشيخ أي رسالة الزاوية، فتبين لنا استمرارية هذه الظاهرة من خلال تمثلات مجتمع البحث لها، بحيث تختلف تصوراتهم لرسالة شيخ البشير استنادا على مكانة الشيخ عندهم ، ومكانة الرسالة في المجتمع.

أ -كل الزوار الذين يؤمنون بقداسة الشيخ السابق، يؤمنون برسالته و كلمته، فهم يعتقدون بولايته الروحية، فتصل تمثلاتهم للشيخ إلى درجة التبجيل و التقديس و الرسالة عندهم هي **رمز مقدس، وهناك** من يراها **كرمز سلام**، بينما نظرتهم للرسالة تبقى تتمركز حول النواة المركزية **الشيخ** .

ب- انتشار االأحداث كعقاب فوري لأشخاص لم يحترموا الرسالة، كان لها دورها في نشأة و بلورة تصورات بعض الزوار. ونجد أن النواة المركزية للتصورات تدور حول **الرسالة**، بينما نجد غياب لفكرة الشيخ عندهم، فهم يجهلونه. فهناك من يخاف من الرسالة حيث تعتبر **رمز الصراع و الخراب** ، و هناك **من لا يؤمن بها**، فهي في نظرهم مجرد استدعاء لا تنفع و لا تضر.

إن سلطة المقدس المرتبطة بالفكر العشائري لا تزل قائمة في بنية مجتمعنا، وهي تمارس دورها الفعال أفقيا وعموديا، ولن يتم إزاحة هذه المرجعيات التقليدية إلا عن طريق جملة متغيرات الموضوعية والذاتية العميقة التي تصيب المجتمع بكل مستوياته، لتنتج بنية مجتمع جديدة تحترم فيه حقوق الإنسان والمواطنة. فرغم تحولات السطحية الظاهرة على البنية

المجتمعية ، ولكن يبقى جوهر سلطة المقدس لا يتغير باسم شرعية الثقافة الأبوية، أي باختصار ما زال الفكر العشائري يطغى على الدولة .

قائمة المصادروالمراجع:

List of references :

- Ibn al-Marzouq al-Tilmisani ibn Muhammad ibn al-Hasan - 1981 - Al-Musnad Al-Sahih Al-Hasan in the Exploits and Beauties of Maulana Abi Al-Hassan - National Company for Publishing and Distribution
- Al-Huwaidi Yahya, 1965, History of the Philosophy of Islam in the African Continent, Part One, Cairo, Egyptian Renaissance Library, 1965
- Ben Bakkar Belhashmi, 1961, Majmoo' al-Lineage, Calculation, Virtues, History and Literature, Tlemcen-Algeria, Ibn Khaldun Library
- Zidan Youssef Mohamed Taha, 2000, The Sufi Way and the Branches of Qadiriyah in Egypt, Beirut, Dar Al-Jeel, First Edition

المراجع باللغة العربية

1.ابن المرزوق التلمساني بن محمد بن الحسن، 1981، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

2.الهويدي يحي، 1965، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965

3.بن بكار بلهاشمي، 1961، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، تلمسان-الجزائر، مكتبة ابن خلدون

4.زيدان يوسف محمد طه،2000، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى

2-مراجع باللغة الفرنسية :

1.Berque Jacques,1955, *structures sociales du haut atlas,* presse universitaire de France

2.Berque Jacques,1982, *ulémas fondateurs unsurges du Maghreb*, Paris , Ed sindbad,

3.Charnay Jean Paul, 1977, *sociologie religieuse de l'islam*, éd sindbad, Paris

4.Colonna Fanny, 1987, *savants paysans,* Alger, office des publications universitaires

5.Colonna Fanny, 1981, *« la répétition des tolba dans une commune rurale de l'Aurès »* pp.187-203, in (S/D) Souriau Christian, *le Maghreb musulman en 1979*, Ed centre national de la recherche scientifique

6.Colonna Fanny, 1975, *institutions algériens : 1883-1939*,Paris, presse de la fondation nationale des sciences politiques

7.Dermenghem Emile, 1954, *le culte des saints dans l'islam maghrébin*, Paris, Ed Gallimard

8.Durkheim Emile, 1912-1990, *Les formes élémentaires de la vie religieuse*,Paris, Ed PUF

9.Gall Michel, 1972, *le secret des mille et une nuit*, Ed Robert Laffont

10.Harris Walter, 1929, *le Maroc disparu, Paris, librairie* plon

11.Heltzfeld Henri, 1993, *les racines de la religion*, Ed de seuil

12.Hirschhorm Monique, *1988, Max weber et la sociologie française*, Paris, Ed l'Harmattan

13.Jeffrey Denis , 1998, *jouissance de sacré, religion et post - modernité*, Paris, Ed Armand colin

Panoff. M, Perrin .M , 1973, *Dictionnaire de l'ethnologie*, Paris, Ed petite bibliothèque

16. Pascon Paul, 1986, *30 ans de sociologie en Maroc*, Casablanca, imprimerie najah El jadida

Thèse:

Cherif Hallouma,2000, la représentation du travail et l'image de soi chez l'ouvrière de l'électronique, thèse de doctorat d'Etat en psychologie sociale, Université d'Oran

ملحق لرسالة شيخ البشير

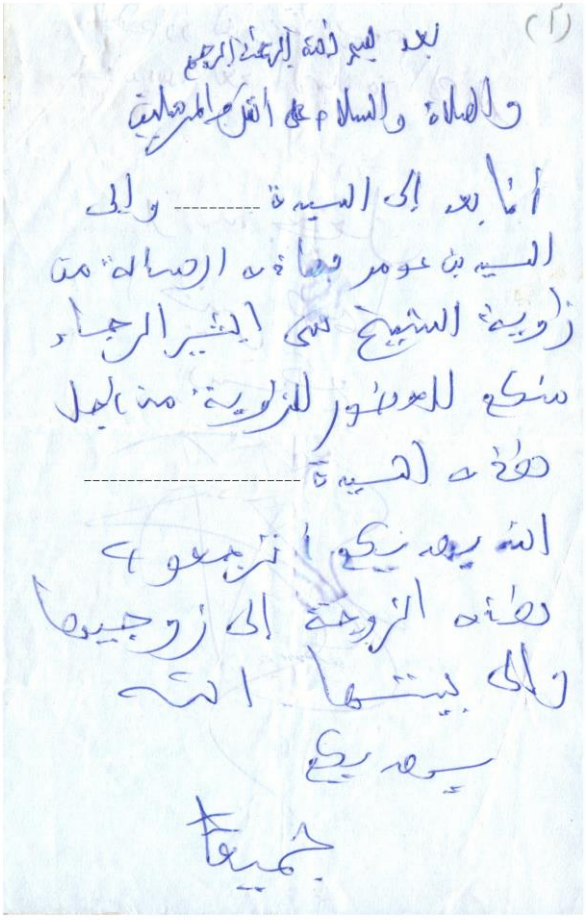

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

أما بعد إلى السيدة ---------- وإلى

السيد بن عومر فحواه الرسالة من

زاوية الشيخ سي البشير الجباد

منكم للحضور للزاوية من أجل

هذه السيدة ----------

الله يهديكم ارجعوا

هذه الزوجة إلى زوجها

وإلى بيتها الله

يهديكم

جميعا